حول مفهوم

الحيطــة والحـذر في الإسلام -1-

الأخ ح. زين العابدين

نتيجة للضربات القاسية والمريرة المتتالية التي تعرضت وتتعرض لها الحركات الإسلاميّة بدأ كثير من الحركات الإسلاميّة يشيع مفهوماً خاطئاً لمعنى الحيطة والحذر في الإسلام ، فقد فقدت الحركات الإسلاميّة كثيراً من عناصرها الفذة ، وتعرض البعض الآخر لأنواع مختلفة من الفتن الرهيبة ، وخشيةً من تكرار الأمر واستمراره ، ظن بعض الحركات الإسلاميّة أنها يمكنها بتجنب هذا الطريق تحقيق انتصار الإسلام ، فما إن تقع في موقع معيّن ضربة من الضربات أو هزة من الهزات لإحدى الحركات الإسلاميّة حتى تسارع حركات إسلامية أخرى إلى التقوقع ، وفي غالب الأحيان إلى الركود التام ، وتشيع التخوف الذي يصل بين أفرادها إلى نوع من الهلع والاضطراب . ولقد نسيت هذه الحركات مع قسوة وجبروت وفظاعة ما يتعرض له المسلمون اليوم وأمس وغداً ، أنّ الله ﷻ قد اختار لهذا الدين ألا ينتصر إلاّ بعد تمحيص المؤمنين وتميزهم من المنافقين والكافرين ، وألا ينتصر إلاّ بعد أن يظهر للناس مدّعي الإسلام من معتنقيه الحقيقيين ، وإلاّ بعد أن يظهر لكل داعية مدى صدقه مع ربه ورغبته في التضحية والبذل ، وأن يطهر من الشوائب والأدران ، كالذهب والفضة توضع على النار وتطرق بمطارق الحديد لتصبح نقية خالصة

يقول الله ﷻ في آية من الآيات الكثيرة التي تحمل هذا المعنى :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [آل عمران :141-143]

هناك فارق كبير بين أن تمنع وتحذّر من التطرف والاندفاع وتخطي المراحل وتحتاط من أن تُستدرَج إلى معركة غير متكافئة ، وبين استمرارية العمل والدعوة بما يرضي الله ﷻ ، وإن تعرض المسلم في سبيل ذلك لبعض الأذى أو فقد حتى حياته . إننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نسمي هذا تهوّراً أو خسارة .. أيُّ تهور هذا أو خسارة .. إنه مكسب عند الله وأيّ مكسب ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ ... **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّـارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة :120-121]

لقد تمادى بعض الحركات الإسلاميّة اليوم عندما أخذ يوجه الأفراد إلى عدم حمل كتاب ديني ككتـــب التفـــسير والعلم الإسلاميّ في العلن ، أو نَصَحَ بعدم التزاور بين المسلمين ، أو حذّر من قول المواعظ في المساجد أو الاجتمـــاع على قراءة القرآن العظيم في بلد إسلامي ، وربما كان ممن يرفع شعار الإسلام .. ماذا يبقى للمسلمين بعد ذلك ؟ .. وهل يريدون الوصول مثلاً إلى أن يترك المسلم صلاة الجماعة في المساجد خوفاً من السلطان كما وصل إليه الحال في بعض البلاد الإسلاميّة ؟ ..

إنّ معظم الحركات الإسلاميّة المتزنة تقوم اليوم بدور التربية والتوعية الإسلاميّة .. فما الذي تخافه وتخشاه ؟ وإلى أيّ مدىً وحدٍّ ستتراجع ؟ .. إنّ الاختبار لا شك قادم ، وإن أعداء الله والإسلام لا يقبلون بتنازلٍ واحد ولا بتقهقرٍ بسيط ، ما لم يتخل المسلم عن عقيدته .. هي هي الحال منذ شعيب والأنبياء من قبله ومن بعده عليهم السلام :

﴿ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْـرُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۞ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ [الأعراف : 87-89]

إنه الثبات والتوكل والدعاء الذي قلّ ما توجّه الحركات أفرادها إليه في مثل هذه المواقف . إنهم يحتجون بالعصر الأول في مكة وبسرّية الدعوة .. فلْينظروا إلى العصر الأول ، لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، كم مـــن تـــضحيات جرت ، وكم من تعذيب وقع ، وكم من رجل وامرأة قدّما النفس في سبيل الله .. وفي بداية الطريق في أول الدعوة : (اجتمع يوماً أصحاب رسول ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهَرُ لها به قط فمَن رجلٌ يُسْمِعْهُمُوه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا ، قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنّا نريد رجلاً له عشيرته يمنعونه من القـــوم إن أرادوه ، قال : دعوني فإن الله سيمنعني ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام –مقام إبراهيم– في الضحى وقريش في أنديتها ثم قرأ سورة الرحمن رافعاً بها صوته فتأملوه –أي قريش– فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد ؟ إنه لَيتلوا بعض ما جاء بـــه محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصـــحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولـــئن شئتم لأُغَادينهم بمثلها غدا) سيرة ابن هشام ص 335-336 .

رحم الله ابن مسعود ذا الساقين النحيلتين والبنية الضعيفة والقلب المرتبط بالله وبالإيمان العميق ، ورضي عنه

إننا نحتاج لمثل هذه الأمثلة ، لبعضها ، ليس من كل فرد ، ولكن من بعض الأفراد ، ومن بعض الجماعات ، حتى لا تنطفئ شعلة الإسلام في القلوب ، ولا تندر التضحية والشجاعة والثقة بالله بين المسلمين . لننظـــر إلى المجـــاهرين بالفسق والإلحاد ومدى تبجّحهم وصلفهم وإقدامهم على نشر ما يعتقدون .. فالمسلمون أولى بإقدامٍ أكبر وبشجاعة أنفذ وبثقةٍ بالله أعظم ، فهم لا ينتظرون إلاّ إحدى الحسنيين ، النصر في الدنيا والثواب العظيم وفضل الله الواســـع في الآخرة .. مع كونهم لن يصيبهم إلاّ ما كتب الله لهم

على أن هذا لا يعني ألا يحتاط المسلمون لأمورهم كنصيحة الرسول ﷺ لبعض أصحابه بـــالهجرة إلى الحبـــشة ، عندما اشتد عليهم الأذى ، ولا يعني هذا أن يتخطى المسلمون مراحل التدرج فيقذفوا بعناصرهم في معارك لم يصبحوا بعد في حاجة إليها ، فالتوازن والتوسط في الإسلام هو المطلوب . إنّ الذي نعنيه ألا يخشى الإنسان المسلم في البلـــد الإسلاميّ أن يمارس الدعوة إلى الله ، إلى الإسلام الصحيح ، أن يربي المسلمين علـــى الخـــير وأن يـــوعيهم بدينـــهم وإسلامهم ، وأن يقوي ثقتهم بربهم ، وأن يبعدهم عن الشرك والنار .. هذه وظيفة المسلم في الحياة وإن لم تعجـــب السلطان وأهله .. وصدق رسول الله ﷺ حين سمّى أحد سادة الشهداء رجلاً قام في وجه سلطان جائر بكلمة حـــق قتل من أجلها . إننا لم نعد نطالب بقول كلمة الحق ! .. ولكننا نطالب بالدعوة إلى الله التي فيه صلاحٌ للجميع ، فيها النجاة في الدنيا والآخرة ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « **لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّـــهَ الْعَافِيَـــةَ فَـــإِنْ لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا** » رواه الدارمي .. وبين هذين الحدّين يكون طريق النصر وطريق الجنة .